موقف بإسقاط التكاليف الشرعية عند أقطاب الصوفية: تحليل نقدى

Concept of Abolition of Certain Duties of *Sharī'ah* for the accomplished Sufis: A Critical Analysis

* الدكتوربادشاه رحمٰن

** هارون الرشيد

Abstract

This article discusses the question whether the accomplished Sufis are innocent and are exempted from duties of *Sharī'ah*? It argues that obligations of *Sharī'ah* are the same for Sufis and general Muslim community. There are no exceptions to the *Sharī'ah* rules for Sufis. Details of the forms and the manner of observance of four basic Islamic tenets duties (*Imāniāt, Aḥkām*, Ibādāt and *Akhlāqiāt*) enunciated in the Holy Quran, *Ḥadīth* and the books of *Fiqh* are identical for all Muslims. Sufis, like other Muslims, have to follow all the relevant commandments. It highlights the point that every Sufi is not authorized to practice *Ijtihād* and issue certain *Fatwa*. However it proclaims that the mistake of one Sufi cannot be taken as the mistake of all Sufis.

Keywords: Sufis, duties of *Sharī'ah*, elimination

إن من أسباب الهجوم على الصوفية أن خصومهم ربما عثروا على خطأ لأحد الصوفية فلا يكتفون بالهجوم على الصوفى وحده، بل يهاجمون الصوفية جميعا، أى أنهم يؤاخذون جمهور الصوفية بحريرة واحدة منهم. وليس الصوفية معصومين عن الخطأ، ولكن الإنصاف يقتضى أن يكون الهجوم أو الإتهام مقصورا على من يستحقه خاصة إذا تبرأ الصوفية من هذا القول و ردوه على صاحبه. وتجدر بالإشارة هنا إلى أن ثقة الصوفية بالتصوف، واعتزازهم به، وتفضيلهم له على سواه لم تمنع شيوخ الصوفية أنفسهم

* الاستاذ المساعد فى قسم الدراسات الاسلامية والعربية ،بجامعة ملاكند، دير (اسفل)۔

** المحاضر فى قسم الدراسات الاسلامية والعربية ، بجامعة ملاكند، دير (اسفل)۔

من توجيه بعض النقد إلى من ينتسبون إلى التصوف، فليس كل من انتسب إلى التصوف مخلصا، وليس كل من اجتهد فيه مصيبا، بل وجد من بينهم أصحاب الأغراض والمنحرفون عن مقاصد التصوف التى حددها شيوخه، وقد كان الشيوخ يتعقبون هؤلاء، ويظهرون عوراتهم، و يتبرأون من أخطائهم. ومع ذلك فإننا ما يثير الدهشة الممزوجة بالغيظ فى آن واحد ممن يتعامل مع التصوف الإسلامى بمنهج تعميم الأحكام دون سند منطقى أو أساس علمى، فنرى بعض عناوين غريبة لأصحاب هذا الإتجاه ومنها:" فضائح الصوفية" وغيرها.

ويرصد علماء السنة المطهرة عددا ضخما من الأحاديث الموضوعة، فهل نرد الأحاديث الصحيحة خشية اعتقاد صحة الأحاديث الموضوعة؟ فاذا استرسلنا مع هذه النقطة وجدنا أفكار كثيرة ذات جذور أجنبية منحرفة حفرت مسارات و تسربت إلى الدراسات الإسلامية، فهل نرد علوم الإسلامية من أجلها؟ فى واقع الأمر فطن علماء المسلمين المخلصون إلى هذه الأمور الهامة فعضوا على القرآن الكريم بالنواجذ و فضحوا أكاذيب الشيعة، وقاموا بعزل الأحاديث الموضوعة، و إفراد مؤلفات خاصة بها، وسلطوا الأضواء الكاشفة على الغريب والدخيل والإسرائيليات لوقاية المسلمين من شرورها، وحفظ الإسلام من أخطارها.

منهج البحث: إستخدمت خلال كتابة هذا البحث المنهج الوصفى المقارن.

دراسات السابقة: إستفدت خلال كتابة هذا البحث المتواضع عدة المصادر والمراجع التى لها علاقة المباشرة بالموضوع منها: كتاب الجانب النقدى فى التصوف الإسلامى لأستاذ الدكتور محمد صلاح عبده محمد، والكتاب الشيعة والسنة لإحسان إلهى ظهير، والرسالة القشيرية لإمام القشيرى، والكتاب القيم، الثورة الروحية في الإسلام لدكتور أبو العلا عفيفى وغير ذلك.

الهدف من الدراسة البحث

هو إبراز الأفكار الصحيحة والإبقاء عليها، وعزل الأفكار السقيمة و إبطالها، ومعيار الصحة والسقم هو الموافقة مع الكتاب والسنة للحكم بصحة الأفكار الصوفية، والحكم ببطلانهاإذا اصطدمت بشئ منهما.

سوال أو الأطروحة البحث:

1. هل الصوفية جميعا معصومين عن الخطأ؟
2. هل نرد علوم الإسلام من أجل أفكار كثيرة ذات جذور أجنبية منحرفة التى حفرت مسارات و تسربت إلى الدراسات الإسلامية؟
3. هل التكاليف الشرعية فعلا ساقطة عن المشائخ الصوفية؟

ماهية التكليف الشرعى

قبل عن نتحدث عن ماهية التكليف الشرعى تجدر الإشارة إلى بعض الحقائق الهامة و هى: خلافة الإنسان في الأرض والميثاق الأول، والهدف من تخليق الإنسان. فبنسبة الحقيقة الأولى فقد جعل الله سبحانه و تعالى الإنسان خليفة له فى الأرض، وفى ذلك يقول الحق عزوجل:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ[2]"o

وبالنسبة للحقية الثانية فإن القرآن الكريم يشير إليها فى قوله تعالى:

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَo أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ[3]"o

أما الحقية الثالثة المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان فقد جاءت فى قول الحق تبارك و تعالى:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ[4]"o

ومن ذلك يبدوا لنا الهدف النهائى من خلق الإنسان، وهو العبادة الموجهة لله عزوجل، وهو الهدف المعلن فى هذه الآية المباركة، والذى سبقه إعلان استخلاف لربه فى الأرض، وأخذ الميثاق على بنى آدم بربوبية الله عزوجل. والعبادة ترتبط ارتباطا وثيقا يحمل الإنسان للأمانة بعد رفض السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، ومن ناهية أخرى ترتبط بالتكليف أو هى الجانب العملى منه، بينما التكليف هو الأساس النظرى لها. فالله تبارك و تعالى يقول عن حمل الإنسان للأمانة:

---

* الاستاذ المساعد فى قسم الدراسات الاسلامية والعربية ،بجامعة ملاكند، دير (اسفل)۔

** المحاضر فى قسم الدراسات الاسلامية والعربية ، بجامعة ملاكند، دير (اسفل)۔

[2]۔ البقرة 02: 30۔

[3]۔ الأعراف 07: 172، 173۔

[4]۔ الذاريات51: 56۔

"إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً[5]"o

فإذا أردنا التعرف على ماهية التكاليف الشرعية بالتفصيل وجدنا أن الحق تبارك و تعالى قد جعل التكليف منوطا بالعقلاء البالغين من المسلمين. و تنقسم تكاليف الشرع إلى:

1. **عقائد، وهى الإيمان بما أمر الله تعالى عباده بالإيمان به.**
2. **أحكام: وهى الإلتزام بما فرض الله عزوجل على عباده من عبادات و معاملات.**
3. **أخلاق: وهى ، التخلق بما أمرالله سبحانه عباده من الفضائل.**

وفى ذلك كله نقرأ عددا كبيرا من من الأوامر والنواهى الواردة فى القرآن الكريم و فى السنة النبوية المطهرة، ونتعرف على تفصيلاتها من كتب الفقه الإسلامى، وكتب الأخلاق، والحديث عن ذلك كله بالتفصيل يستغرق أعمارا، و يستهلك رجالا، و يخرج عن طبيعة هذا البحث، ولهذا نكتفى بالإشارة إلى ما يخصنا، وهو التكاليف الشرعية فى جانب العبادات، حيث وجه خصوم التصوف التهمة للصوفية زاعمين أنهم يقولون بإسقاطها، وتحليل هذه القضية هو هدف هذا البحث. وكما يعلم المسلمون فإن العبادات هى: الصلوة، والصيام، والزكاة، والحج بشروطها و ضوابطها الموجودة فى كتب الفقه. و نستطيع القول إن: هذه العبادات هى أركان الإسلام مع الشهادتين أو هى الإسلام فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده عن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى قوله:

"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله، وتقيم الصلوة، و تؤتى الزكوة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"[6].

فالصلوة والزكوة والصيام والحج هى أركان الإسلام العملية افترضها الله تبارك و تعالى على المسلمين، ثبتت فرضيتها بالقرآن الكريم، و بأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ،وقد ألحق النبى ﷺ بكل فرض منها النوافل التى تتبعه. هذه العبادات من فرائض والنوافل أمر الإسلام بها، ووعد بالثواب على من يؤديهان وتوعد بالعذاب من جحدها، كما توعد من لم يتخلق بأخلاق الإسلام،ومن لم تثمر فيه هذه العبادات ثمراتها الأخلاقية، إذ أنه من المعلوم ارتباط اركان الإسلام بالأخلاق، فالصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكوة تزكى و تطهر من أداها، والصيام يحول بين المرء و بين شهواته و أهوائه، والحج يستصحب سلوكا راقيا خاليا من الرفث والفسوق والجدال، وهذه النتائج الأخلاقية، مأخوذة من آى الذكر ومن الهدى

---

[5]- الأحزاب 33: 72-

[6]- ابوالحسن مسلم بن حجاج النيسابوري ، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999) 1: 36-

النبوی الکریم. وکما أن لأدائها مردودا إیجابیا واضحا علی المستویین: الفردی والإجتماعی، فإن التقصیر فیها أو الإستهتار بها له آثاره المدمرة للفرد والمجتمع علی السواء، والأخطر من ذلك المجاهرة بذلك، أو الإستعلان بالمعصیة والمخالفة لشرع الله تعالی علی وجه العموم. ومن هنا فإنه لیس من المقبول: شرعا أو عقلا أو عرفا الإقرار بسلامة إسلام لقائلین بإسقاط التکالیف الشرعیة، أو التماس الأعذار لهم[7].

مفهوم التصوف

سنذکر فیما یلی مفهوم التصوف علی سبیل الإجمال من الناهیتین اللغویة والإصطلاحیة.

(الف) الإشتقاق اللغوی: کثرت آراء الباحثین فی التصوف حول الإشتقاق اللغوی للتصوف، ومنهم: شیوخ التصوف القدامی کالطوسی والقشیری، ومنهم المستشرقون کماسینیون و نولدکه، والباحثون المسلمون کالدکتور عبدالحلیم محمود والدکتور محمد أحمد مصطفی وغیرهم. و تتلخص اجتهاداتهم فی أن الأصل اللغوی للتصوف یأتی من أحد الإشتقاقات التالیة:

صوفة: والمقصود به رجل نذرته أمه للکعبة المشرفة فی العصر الجاهلی، لأنها لا یعیش لها ولد، فلما وفت بنذرها تغیر ولدها وقالت حینما رأته: "ماصار ابنی إلا صوفة" کما أطلق هذا اللقب علی قبیلة کانت تتولی القیام ببعض المناسك فی الجاهلیة.

صوفانة: وهی نبتة صحراویة.

أهل الصفة

وهم مجموعة من فقراء الصحابة کانوا یأوون إلی صفة فی المسجد النبوی.

الصف الأول: فهم فی محل القرب من الحق بین الناس کما یتمیز أصحاب الصف الأول.

الصفة: والمقصود مها ماحسن منها. الصفاء. الصوف[8].هذا مجمل الآراء القائلة بالإشتقاق اللغوی للکلمة من هذا الأصل أو ذاك. فالقول بأنهم سموا صوفیة للبسهم الصوف أليق و أقرب إلی التواضع و یقرب أن یقال: لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والإنکسار والتخفی والتواری کانوا کالخرقة الملقاة، والصوفة المرمیة التی لا یرغب فیها، ولا یلتفت إلیها، فیقال صوفی نسبة إلی الصوفة، کما یقال کوفی نسبة إلی الکوفة، وهذا ما ذکره بعض أهل العلم، والمعنی المقصود به قریب و یلائم الإشتقاق، ولم یزل لبس الصوف اختیار الصالحین والزهاد والمتقشفین والعباد[9].

---

[7]۔ دکتور طلعت غنام، أضواء علی التصوف (القاهرة: عالم الکتب، 1979) 27 الی 29۔

[8]۔ دکتورمحمد أحمد مصطفی، علم التصوف (بیروت: مکتبة التراث الأزهریة، 1983) 12.

[9]۔ ابوحفص عمر بن محمد السهروردی، عوارف المعارف (القاهرة: مکتبة عیسی الحلبی، 1957) 45 و46۔

(ب) المعنى الإصطلاحى لكلمة التصوف: على كثرة ما كتب فى التصوف من مؤلفات قديمة و حديثة فإننا لا نجد تعريفا جامعا مانعا له، بل على العكس من ذلك وجدنا تعريفات متعددة تكاد تكون فوق الحصر، ولن نستطيع استقصاء و ذكر هذا العدد الهائل الذى تمتلئ به مصادر التصوف، ولكننا سننهج نهج المحاولات السابقة التى قسمت هذه التعريفات إلى مجموعات مثلما صنع الدكتور أبوالعلا عفيفى، والدكتور إبراهيم بسيونى، وغيرهم الذين قسموا هذه التعريفات على نحو خاص، و فى هذه الفقرة نستفيد من الجهود الطيب الذى قام به الأستاذ الدكتور محمد أحمد مصطفى فى كتابه القيم" علم التصوف" برابه، ووفاء له، وتواصلا بمع فكره.

تعريف تتصل بالزهد: وهو تعريف عند الكرخى: التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما فى أيد الخلائق[10].

وتعريف رويم: التصوف مبنى على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر إلى الله، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والإختيار. تعريف ترتبط بالأخلاق: ومنها تعريف أبى محمد الجويرى عندما سئل عن التصوف، فقال الخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى[11].

وتعريف القصاب: وهوالتصوف أخلاق كريمة ظهرت فى زمن كريم مع قوم كرام.

وتعريف الكتانى: وهوالتصوف خلق فمن زاد عليك فى الأخلاق فقد زاد عليك فى الصفا[12].

تعريف تتصل بالصفاء: وهو التعريف عند سهل التسترى الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر[13].

تعريف تتصل بالغاية وهى الحق: ومنها تعريف شيخ الجنيد وهو التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة[14].

وتعريف ذى النون المصرى الذى سئل عن المتصوفة فقال هم قوم آثروالله عزوجل على كل شئ فآثرهم الله عزوجل على كل شئ[15].

---

[10]- عبد الكريم بن هوازن القشيرى، الرسالة القشيرية، (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1966) 2: 552-

[11]- القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 550-

[12]- القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 555-

[13]- السهروردى، عوارف المعارف، 43-

[14]- القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 552-

[15]- القشيرى، الرسالة القشيرية، 2: 551-

تعريف ترتبط بخصوص طريق التصوف: ومنها تعريف الجنيد عندما سئل عن الصوفية فقال هم أهل بيت واحد لا يدخل فيم غيرهم[16].

تعريف المحدثين: ومنها تعريف الدكتور إبراهيم بسيونى: "التصوف تيقظ فطرى، يوجه النفس الصادقة إلى أن تجاهد حتى تحظى بمذاقات الوصول، فالإتصال بالوجود المطلق"[17]. وتعريف الدكتور محمد ياسر شرف الذى يقول فيه: "وأرى أن تسمية "صوفى" قد أطلقت بمعنى الشخص الإنتقائى الذى يعمد إلى القيام بالسلوك معين يتصف بالحكمة إذ يصطفى أفضل العادات والعقائد، ويتبعها فيؤدى ذلك إلى ظهور مخالفته الشائع من درجات السلوك المتدنية فكريا و اخلاقيا و اجتماعيا"[18]. ويلاحظ أن هذا التعريف ينحو منحى أخلاقيا واضحا.

التعريف المختار: أما التعريف المختار فهو تعريف الكتانى للتصوف بأنه "صفاء و مشاهدة" وهو الذى اختاره أستاذ المرحوم الدكتور محمد أحمد مصطفى ومن قبله الإمام الدكتور عبدالحليم محمود[19]وهو رغم شدة إيجازه إلا أنه يلخص مراحل الطريق إلى الله تعالى عند الصوفية، وهو طريق وعر المسالك، عميق الأغوار، كثير العقبات، و ذلك لأن هذا التعريف هو "الأجمع والأدق" فالصفاء يشمل الناتج عن طريق التصفية المقصودة، والذى هو منحة وهبة من الحق، وهو جامع لكل الجوانب الخلقية، وما يتعلق بالعبادة والزهد والمجاهدة والإخلاص، وابتغاء وجه الحق والرضا والتسليم للمقادير.

وأما القسم الثانى فيشمل جميع الأحوال الروحية، و جميع النتائج التى يتميز بها الصوفية لتميز نوع المعرفة والإدراك عندهم عن طريق القلب[20]. وإذا كانت العبادات في الإسلام لتزكية النفس، وتطهير المجتمع، فإن العبادات فى التصوف هدفها ربط القلب بالله للتلقى عنه مباشرة، والفناء فيه، واستمداد الغيب من الرسول، والتخلق باخلاق الله حتى يقول الصوفى للشئ كن فيكون، و يطلع على أسرار الخلق، و ينظر فى كل الملكوت. ولايهم فى التصوف أن تخالف الشريعة الصوفية ظاهر الشريعة المحمدية الإسلامية، فالحشيش والخمر و اختلاط النساء بالرجال فى الموالد، وحلقات الذكر، ذلك لايهم، لأن

---

[16]۔ القشيرى، الرسالة القشيرية، 2: 553۔

[17]۔ دكتور إبراهيم بسيونى، نشأة التصوف الإسلامى (بيروت: دارالمعارف القاهرة، 1969) 28۔

[18]۔ دكتور محمد ياسر شرف، حركة التصوف الإسلامى (بيروت: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986) 33۔

[19]۔ دكتور عبدالحليم محمود، المقدمة الدراسية للمنقذ من الضلال للغزالى (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1974) 173 الى 177۔

[20]۔ دكتورمحمد أحمد مصطفى، علم التصوف، 38۔

للولى شريعته التى تلقاها من الله مباشرة، فلا يهم أن يوافق ماشرعه الرسول محمد لأن لكل واحد شريعته، و شريعة محمد و شريعة الشيخ الصوفى للخواص[21]. ويتضح فى هذا النص التحامل على الصوفية جميعا الناتج عن تعميم الأحكام، والتسرع فى الحكم على المجموع بما قد يصدر عن بعض الأفراد، وذلك قد يؤدى إلى انعدام الموضوعية والإنصاف، وهو ما يبدوا من خلال هذا الرأى. وليس الأمر قاصرا على إيراد التهمة فحسب، بل إن من الكتابات المعاصرة من يرى أصحابها وضع الصوفية والشيعة فى خندق واحد، وفى ذلك يقول أحدهم ومن العقائد الشيعية الباطنة المعروفة: نسخ الشريعة، ورفع التكاليف. أما نسخ شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه فيؤمن به جميع فرق الباطنية، ولو أنهم يتظاهرون بإنكاره[22]. ثم ينقل عن كتب الشيعة ما يؤكد به وجهة نظره، ثم يقول عن الصوفية: "ولقد ورد فى كتب الصوفية حكايات كثيرة لا تعد ولا تحصى تدل على إتيان المتصوفة المنكر، و إباحتهم المحظورات و تركهم الواجبات ومع ذلك عدوهم من أولياءالله[23]". وبما يسترعى النظر هنا أن الصوفية المحققين سبقوا خصوم التصوف بتوجيه سهام النقد للمنحرفين والأدعياء، والقائلين بأفكار خارجة مثل القول بإسقاط التكاليف الشرعية، وهو موضوع الفقرة التالية.

نقد الصوفية لفكرة إسقاط التكاليف الشرعية

قبل إيراد وجهة النظر الصوفية أصحاب المؤلفات الشهيرة تجدر الإشارة إلى إتجاه عام اتخذه الصوفية الكبار، وهو يعبر تعبيرا واضحا عن ضرورة استناد التصوف، و استمداده من الكتاب والسنة، ويشير ابن الجوزى رغم حدته مع الصوفية إلى هؤلاء بقوله: "وما كان المتقدمون فى التصوف إلا رؤساء فى القرآن والفقه والحديث والتفسير[24]". ويقوم كثيرا بالنقل عنهم مايفيد تقيدهم بالشرع الحنيف مثلما ينقل عن أبى الحسين النورى قوله: "من رأيته يدعى مع الله عزوجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رايته يدعى حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه[25]". وقد أسس الصوفية الكبار أقوالهم و أفعالهم على ماجاء فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومن هنا تأتى إشارات شيوخهم، وفى ذلك يقول أبو زيد البسطامى: "لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى

---

[21]۔ عبدالرحمن عبدالخالق، فضائح الصوفية، (كتاب مطبوع وقف لله تعالى، س ن) 47 و48۔

[22]۔ إحسان إلهى ظهير، التصوف المنشأ والمصادر (باكستان: إدارة ترجمان السنة، 1986) 260۔

[23]۔ إحسان إلهى ظهير، التصوف المنشأ والمصادر ، 267۔

[24]۔ ابن الجوزى، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، تلبيس إبليس (بيروت: دارلكتب العلمية، 2001) 323۔

[25]۔ ابن الجوزى، تلبيس إبليس، 168۔

الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، و أداء الشريعة[26]". ويقول أبو حفص الحداد: "من لم يزن أفعاله و أحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال[27]". وسيد الطائفة الإمام الجنيد يقول: "من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتضى به فى هذا الأمر؛ لن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة[28]". فإذا تصفحنا مؤلفات الصوفية وجدنا الجانب النقدى واضحا فى هذه المؤلفات، وخصوصا عند عرضهم لمشكلة القول بإسقاط التكاليف الشرعية، ونورد فى هذه الفقرة وجهة نظر بعضهم علما بأننا سنعرضها طبقا للترتيب الزمنى.

1۔ أبو عبدالرحمن السلمى412ھ: يتحدث السلمى عن محاوله بعض الأدعياء التحلل من التكاليف الشرعية ولهذا نراه يجعل من الشروط الصوفية الصادقين أن لا تحملهم المعرفة على تخطى شئ من الشرع و آدابه والتهاون به، بل يجتهدون فى تعظيم الشرع، وظاهر العلم فى كل وارد، و يتركون الدعاوى كلها ماصغر منها وما كبر[29]. بالإضافة إلى أن السلمى قام بنقد المدعين و إخراجهم من دائرة التصوف، و فى ذلك يقول والذى يدعى هذا المذهب، ويبطل عمل الجوارح من العبودية والخدمة والطاعة، وتعطيل القلب من الذكر والإرادة و جمع الهمة، و معرفة الواردات، و إخلاص النية، ولا يؤدى حقه، ويعرف حقائقه، وهو يدعى ماليس له ليقربه ذلك من الناس، و يجعله حرفة يأكل بها، و يأخذ الوقت الطيب. فإذا بدت له الحقائق من الفقر والطاعة والذل والخدمة والمكروهات و طولب المجاهدات فروذهب، وخسروافتضح، وصار بترك هذه الأوصاف خارجا عن دعواه، وهو متصنع يلبس المرقعات والتصنعات بلا خشية ولا مراقبة ولا ورع ولا مجاهدة ولا ذكر ولا معاملة، فإنه إنما يخسر و يسخر من نفسه. فالتصوف يلعنه، والدعاوى تحجبه، والشيطان يقربه، والملائكة تبعده، والله عزوجل يمقته، و أهل تصوف الحقيقة خصماؤه[30]. فالسلمى فى هذين النصين يرفض بشدة أى تهاون فى أداء التكاليف الشرعية، أو إسقاطها بأى حال من الأحوال.

2۔ أبوالقاسم القشيرى 465ھ يرصد الإمام القشيرى بعض الظواهر السلبية فى المجتمع المسلم فى عصره.

---

[26]۔ القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 82۔

[27]۔ القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 96۔

[28]۔ القشيرى، الرسالة القشيرية، 1: 107۔

[29]۔ أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمى، المقدمة فى التصوف (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1987) ص128۔

[30]۔ السلمى، المقدمة فى التصوف، 128۔

ومنها: الإستخفاف بأداء العبادات، والإستهانة بالصوم والصلوة، وهذه الظواهر وغيرها دعته إلى تصنيف رسالته فى التصوف، يقول القشيرى فى بدايتها وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التميز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الإحترام وطرح الإحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلوة، وركضوا فى ميدان الغفلات و ركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات، والإرتفاق بما يأخذونه من السوقة والنساء و أصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، و أنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، و أنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية[31]. هذه من السطور الأولى فى الرسالة القشيرية يرفع فيها صاحبها صوته بالشكوى من هؤلاء الأدعياء الذين كثرت جرائمهم.

ومنها: الإسخفاف بالعبادات، والإستهانة بالصوم والصلوة، ولهذا نرى القشيرى يختم رسالته ببعض الوصايا منها قوله وبناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة، وصون اليد عن المد إلى الحرام والشبهة، وحفظ الحواس عن المحظورات[(32)].

3- الغزالى 505ھ: يتناول الغزالى المسألة تناولا مغايرا حيث يقول بل معنى ارتفاع التكليف عن الولى أن العبادة تصير قرة عينه، وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنه، فلا يكون عليه كلفة فيه. وهو كالصبى يكلف حضور المكتب، ويحمل على ذلك قهرا، فإذا اكتمل بالعلم صار ذلك ألذ الأشياء عنده، لأنه يأكله بشهوة و يلتذ به فأى معنى لتكليفه؟ فإذن تكليف الولى محال، والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم، ولا يصلى، ويشرب و يزنى. وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه، وتقبيل قدميه، والتواضع له، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته، فكذلك غذاء روح الولى فى ملازمة ذكره، وامتثال أمره، والتواضع له بقلبه، لا يمكنه إشراك القالب والقلب فى الخضوع إلا بصورة السجود، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم حتى يشترك فى الإلتذاذ قلبه[(33)]. فالتكليف عند الغزالى بمعنى المشقة، وهو يرفض المعنى الذى يدل على إسقاط التكاليف، و إتيان المنكر، وتحدر الإشارة إلى أن الإمام الغزالى قد أفرد

---

[31]- القشيرى، الرسالة القشيرية، 02-

[32]- القشيرى، الرسالة القشيرية،1: 185-

[33]- أبو حامد محمد بن محمد الغزالى، المنقذ من الضلال (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1984) 290-

بعض مؤلفاته الهامة للرد على الباطنية، وهم غير الصوفية، وهاجم القائلين بهذه الأفكار المنحرفة فى البيئة الإسلامية، الشاذة عن المنهج الإسلامى المبنى على الكتاب والسنة.

4۔ السهروردى 632ھ:يوجه السهروردى نقده للدخلاء على المذهب الملامتى لا يرى فيه بأسا بينما ينحو باللائمة على الأدعياء المغرورين، وفى ذلك يقول فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية، لينسبوا بها إلى الصوفية، وماهم من الصوفية بشئ، بل هم غرور و غلط، يتسترون بلبسة الصوفيةن وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والإرتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام، والقاصرين الأفهام، المنحصرين فى ضيق الإقتداء تقليدا، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى زندقة. وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة هى العبودية، والحقيقة هى حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وصار مطالبا بأمور و زيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكاليف، و يخاطر باطنه الزيغ والتحريف[34]. وهكذا نرى السهروردى يدافع دفاعا حارا عن التكاليف الشرعية، و يرفض رفضا تاما فكرة إسقاط أو القول به. ثم يضع أيدينا على نوع آخر من الفكر الفاسد لهؤلاء الذين يرتكبون المنكرات زعما منهم أنهم مجبورون على ذلك، وفى ذلك يقول ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون فى بحار التوحيد، ولا يثبتون لنفوسهم حركة وفعلا، و يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لافعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون فى المعاصى، وكل ما تدعوا النفس إليه، و يركنون إلى البطالة و دوام الغفلة، والإغترار بالله، والخروج من الملة، و ترك الحدود والأحكام، والحلال والحرام[35]. فنقد السهروردى لهؤلاء ينصب على قولهم بإسقاط التكاليف الشرعية، سواء كانت فى جانب الأمر أو النهى، سواء كانت حجتهم فى ذلك الوصول إلى المراد عن طريق خلوص ضمائرهم، أو زعمهم بأنهم مجبورون فى الحركة أو السكون.

خلاصة البحث

1. وجدنا خلال هذ البحث أن القول بإسقاط التكاليف الشرعية كان تهمة مثارة فى وجه التصوف الإسلامى، ولكن الصوفية المسلمين كانوا أسبق من غيرهم فى هدم هذه الفكرة و طرد القائلين بها صفوف الصوفية.
2. رأينا اهتمام شيوخ التربية الصوفية بالتكاليف الشرعية، وإلزام أنفسهم و أتباعهم بها، بل

[34]۔ السهروردى، عوارف المعارف، 2: 4 و 5۔

[35]۔ السهروردى، عوارف المعارف، 2: 11 و12۔

كانت مبالغتهم فی ذلك محل مؤاخذة من خصومهم.

3. لا يوجد فی التصوف الإسلامی الصحيح ظاهر يخالف باطنا، ولا حقيقة تخالف الشريعة، إذ أن الإرتباط قائم لا ينفك بين باطن المسلم و ظاهره، وبين فقه القلوب و فقه الجوارح.
4. القول بهذه الفرية الخطيرة مردود فی وجه أصحابه، فأين هم من "وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ"[36]؟ ألم يروا كيف جعل الله تعالى السجود علامة قرب؟ أين هم من دعوة الله تعالى لعباده للتقرب إليه بالفرائض والنوافل؟ أين هم من السلوك العملی لسيدنا رسول الله ﷺ، ومبالغته فی إلزام نفسه، وأخذها بالشدة التی لم يأخذ بها كلوصال فی الصوم، وقضاء الوقت الطويل فی صلاة الليل، ولما سئل عن ذلك أتت إجابته القيمة "أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا"[37]. وكان ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فی أداء الشعائر حتى آخر لحظات حياته الطاهرة.
5. المسلمون جميعا مطالبون بالمحافظة على التكاليف الشرعية قولا و فعلا أمرا و نهيا.
6. الصوفية بصفة خاصة عليهم العبء الأكبر فی إلزام أنفسهم و أتباعهم بضرورة الالتزام الكامل بالتكاليف الشرعية، لأنهم هدف واضح لتوجيه الاتهامات المتعددة، ومنها تهمة إسقاط التكاليف.
7. الباحثون فی التصوف الإسلامی يجب عليهم تحرى الدقة، وعدم التسرع فی إصدار الأحكام، وعدم التعميم دون ضرورة، بل إن عليهم واجبا أكبر يمليه عليهم الضمير الدينی، والحس الإيمانی وهو ضرورة تمييز الحق من الباطل، والصحيح من السقيم فی الفكر الصوفی دون جور أو مجاملة.
8. الحقيقة بلا شريعة باطلة،و شريعة بلا حقيقة عاطلة، فهما للمسلم كجناحی الطائر، لايستقل أحدهما

---

[36]۔ العلق 96: 19۔

[37]۔ ابوعبدالله محمد بن اسماعيل البخارى، الجامع الصحيح (بيروت: دار طوق النجاة، 1422) 6: 135، الرقم4837۔